نفـــــاق المخلص

للأســـــتاذ ثروت أباظه

رجل أصابه الدهر بنكبات تصيب إحداها الشديد فتصرعه ، غير أنه كان أقوى من الشدة فثبت ، وصبت به العازع لم تصب منه مكسراً ، ولم تقصف له عوداً ، ولكن نفسه ضعفت دون أن يمر بها الخطب ولا يؤثر فيها .. فانعقدت بها العقدة ، وكره أن يرى السعادة ؛ فخصص حياته الباقية لحرب الخير ، ومناهضة الرفاهة ، وتدعيم الشر ، ومباركة الشقاء .

عرفته وهو يستقبل المصائب ، وكان إذ ذاك لا يفرح افرح الناس ، ولكنه كان أيضاً لا يفرح لحزنهم . ثم شهدته والمصائب تعتوره من كل جانب حتى لم يعد فيه مكان لإصابة ، فصار إلى ما هو عليه .

ولنا صديق رأى سعادته وسعى إليها ، فسارع إليه الرجل ذو العقدة يثنيه عما يروم ، باذلا فى سبيل ذلك ما شاء من خسة وكذب . وكان الصديق يعرف فى الرجل عقدته وخسته ، ولكنه لم يفكر يوماً أن نصيبه هو هذه الخسة وهو الذى يبذل له الود الصادق والعطف الكريم .. وظل يحسن به الظن حتى انكشف له لؤمه وكذبه ، فرمى بقوله عرض الأفق ، وأتم ما كان مقدماً عليه ، وكفأ الرجل ذو العقدة على مرجله غطاء من ود ظاهر .

ظننت أن صديق سوف يشيح عنه بوجهه وعطفه ، وأنا أعلم فيه صدقاً فى وده ، فلا يمنحه إلا صادراً عن قلبه . ولكن الصديق أخلف ظنى ، وراح يظهر للرجل مثل ما كان يظهر ، حتى احتسبت الله فى صفائه ، واعتقدت أن الحياة علمته خداعاً كان يجهله ، ولكننى لم أطق أن أودع فيه خلالا حمدتها له زمناً قبل أن أسأله :

— أراك ما تزال تحبه ، وهو الذى فعل ما فعل . وأعرفك لا تبذل حبك من لسانك !

— إن ما فعل لا يعرفه إلا أنا وهو وأنت . فإذا تغيرت عليه ظهر ما لا أحب إظهاره .

— وتنافق ! ؟

— وما ذا فى ذلك ! ؟

— كأنى أكلم شخصاً لا أعرفه . . . ألا تعرف ما ذا فى النفاق ؟ .. فيه أنه نفاق . خداع وكذب ، وإجراء نفسك على غير ما تحب ، وظهورك بغير ما تبطن .

— لعل دهشتى من كلامك أكبر من دهشتك . إن ما تقوله لفظ أنيق تخلى عنه منطقك الواقعى . . إن النفاق شر إذا هدف إلى الشر ، أما إذا حدت إليه عواطف الخير فهو خير هادف إلى خير .. أما اعتقادك أنى أجرى نفسى على غير طبيعتها ، فإنى مرتاح إلى ذلك ما دمت لا أحمل فى نفسى غضاضة الشر .

— وكيف أعرف نفاقك من إخلاصك ما دمت هكذا ؟. كيف يتسنى لى أن أميز بين ودك خالصاً وبين ودك مشوباً ؟

— ودعنى أسميه نفاقاً مهما يكن هادفاً إلى خير — كيف يمكننى ذلك ما دمت تقدم على الإخلاص وغيره بهذا السمت البرىء الذى عرفت به ؟

— إن مقياسك فى ذلك هو نفسك .. فإن كنت تضمر لى الشر وتبديه حتى أحسه منك ، ثم تراءى بعد هذا أقدم لك من الود ما عودتك فأنا معك منافق ، أبقى على احترام الناس لك ، وأخشى عليك قالتهم ، راجياً منك الخير بعد الشر ، والوفاء بعد الغدر .

— أولا تعتقد أن الرجل شاعر بأنك تبدى له هذا الود عن غير إخلاص .. هل بلغ به الجمود حداً لا يعرف به أنه أساء إليك وأنت تحسن إليه ! ؟

— لا . . بل إن الرجل يعلم علم اليقين أن هذا الود الذى أبديه له أصبح وداً غير حقيق ، ويعلم أيضاً أننى أذكر له كل الشر الذى قدم .

— أولا تعتقد أن صلتك إياه تؤلمه أكثر من قطيعتك له ؟

— ربما جال هذا بنفسه إن كان بها بقية من ضمير ، ولكنه من الذكاء بحيث يعلم أننى أفعل ما أفعل لأبقى عليه الستار الذى أسدله أمام الناس . . أما إذا كان ضميره قد انجلى عنه ، فهو مسرور بما أفعل ، مرتاح إليه ، مقبل عليه كما كان يقبل .

وهكذا لم أودع فى الصديق ما عرفت له من الخير ، بل استقبلت منه تمرساً بالحياة ، ومجاراة لها ، وتحويلا من شرها إلى خير ، ومن نفاقها إلى إخلاص . . إنه بنافق لا شك ، ولكنه نفاق المخلص .

ثروت أباظه